اطوار المغنين والموسيقيين الغربية

لا يخفى ان لاصحاب القرائح أطواراً غريبة · وملكاتٍ عجيبة · وبدَوات[1] يعلمونها مُصيبة · وذلك لانهم ألفوها فامتزجت بدمهم وانتقشت على صفحات دماغهم فلا يستطيعون الانفكاك عنها · اما الذين يرونها فيعدونها من النوادر وشواذ الاخلاق · فلهذا جمعتُ من هذه الطرائف ما وصلت اليهِ يد البحث عن الاعارب والاعاجم ورتَّبتها على حسب الفنون او الصناعات تفكهةً لمطالعيها وبياناً لما في نرايجم العظماء من مثل هذه الغرامض المشغبة ودرساً مفيداً للشبان الذين يستطيعون وهم في مقتبل العمر ان يتركوا ما كان منها غير مرضي للذوق وغير موافق للعصر ومجتمعهِ الانساني · وبدأت الآن بذكر اطوار المغنين والموسيقيين عند العرب والافرنج

(١) اطوار المغنين والموسيقيين عند العرب

كان ابن عائشة المدني مغني الوليد بن يزيد تيّاهاً لا يغني الاَّ لخليفة او لذي قدر جليل من اخوانهِ · ومع انهُ من احسن الناس غناء وانبههم فيهِ كان من اضيق الناس خلقاً · اذا قيل لهُ غنِّ قال : أوَلستُ يقال غنِّ عليَّ عتق رقبة ان غنيت يومي هذا · فان غنَّى وقيل لهُ : احسنت · قال أوَلستُ يقال احسنت - عليَّ عتق رقبة ان غنيت سائر يومي هذا · وقصتهُ في يوم العتيق مع الحسن ابن الحسن بن علي بن ابي طالب مشهورة اذ اجبرهُ على الغناء فبقي يمثل ببرارة ذلك اليوم عليهِ

وكان ابن سُرَيج المغني الذي مات في خلافة هشام بن عبد الملك لا يغني الاَّ متنعّاً يسبل القناع على وجههِ او يجلس وراء ستر · قيل وكان يفعل ذلك اخفاء لقبح صورتهِ وكان احسن الناس غناء يغني مرتجلاً يضرب بالعود ويتر على الدف · وكان معبد اذا غنى واطرب قال : انا اليوم سريجيّ

وكان فُليح يشرب النبيذ حتى يسكر ويعربد فيجود في الغناء ولم يكن لهُ بدٌّ من العربدة وكان دحمان المغني في زمن الوليد لا يغني اذا لم يشرب · وكذلك معبد وأكثر المشدين الى يومنا

وكان طويس لا يكاد يغني الاَّ والدف في يدهِ · وكثيراً ما كان يأخذ ملحفة فيتزر بها ويرخي طرفها ذوائبهِ ثم يأخذ الدف المربع فيمشي ويغني · وقد يخالف هذه العادة فيحسر عن

(١) البدوات جمع بداة وهي ما بدا من الرأي · والبداوات بعضها

ذراعيه ويلقي رداءه ويمشي بين الساطين وهو يقرقفه ويتغنى . وكان يدعى اللسان يتق لسانه ويضرب به المثل في الشؤم

وكان ابن جامع من طبقة ابي اسحق ابرهيم الموصلي في الغناء وكان شديد الولع بالقمار والكلاب حسن السمت يعتم بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة ويلبس لباس الفقهاء ويضرب العود ولا يكاد يغني الا وهو كذلك وكان جهيراً اي عالي الصوت . وكان فيه بخل شديد بالغناء ويخشى على الحاذق ان ينقل

وكان ابن ابي السمح الطائي خريج معبد في الغناء لا يضرب بعود اذا يغني مرتجلاً فاذا غنى لمعبد صوتاً حققه ويقول : قال الشاعر فلان ومطلعه معبد وخفقته انا

وكان ابرهيم بن المهدي اذا غنى يهز كتفيه ويحرك جميع بدنه . وهو اخو هرون الرشيد وكثيراً ما كان يأخذ خشبة ويضرب عليها ويردد الصوت حتى يتم له

وكان شيخ المغنين ابرهيم الموصلي يجلس في بيته للغناء وبين يديه قدور تغرغر وابارين تزهر والنارة منصوبة والجواري خلفها وقدامه طست فيه وطيلة[1] وكوز وكاس وعرف يكبو نفسه ونبله . وكان مولعاً بالشراب والمهدي يريد ملازمته اياه بدون شرب فابى ذلك وكان يغيب عنه اياماً ثم يعود اليه نشواناً فيضربه ويحبسه . ولما ملك الرشيد حضر مجالسه اذ كان فيها الشراب وكان عواداً سأله الرشيد مرة كيف تصنع اذا اردت صوغ الالحان فقال : اخرج الهم من فكري وامشط الطرب بين عيني فيسرع لي مسالك الالحان فاسلكها بدليل الايقاع فارجع معيباً ظافراً بما اريد . وكان هو اول من وقع الايقاع بالقضيب حتى كان لا يستطيعه بدونه توفي سنة ١٨٨ هـ (٨٠٣ م)

وكان ولده اسحق أفضل خلق الله واشدهم بخلاً بالغناء حتى على جواريه وغلمانه وكان يضرب على عود مشوش كأنه يضرب على عود سوي . وكثيراً ما كان يستلقي على فراشه والعود في يده ويغني

وكان ابو الحسن علي بن نافع مولى المهدي البلجي الملقب بزرياب لسواد لونه مع فصاحة لسانه وحلاوة شمائله تشبيهاً له بالزرياب وهو طائر حسن التغريد يسمى عندنا ابا زريق» خريج اسحق الموصلي فحاسده فدخل زرياب الاندلس واسس فيها صناعة الغناء وكان يشرب النبيذ عواداً وقلما استطاع الضرب على غير عوده الذي يخته يده واتخذ اوتاره من

(١) لم اجد هذه الكلمة في المعاجم التي بيدي وانما وجدت للتمر يسع رطلاً وربما كانت رطلية من قول عامتنا خمسينة ما يسع من التمر خمسين درهماً

الحرير الذي لم ينزل بماء سخن يكسبها إنانة ورخاوة . وكان بمثلها ومثلّها من مصران شبل

وكان ابو سعيد مولى فائد مرة في المسجد الحرام بمكة وابرهيم بن المهدي فيها . فدخل ابو سعيد لصلاة وقد قلب احدى نعليه على الاخرى . ولما انتهى استقدمهُ اليهِ ابرهيم بن المهدي واراد ان يسمعهُ ولما كان لا يستطيع الغناء بدون النقر قلب احدى نعليهِ واخذ بعقب الاخرى وجعل يقرع بحرفها على الاخرى و يغنيهِ

وكانت جيلة المغنية اذا شاءت استقبال الملوك والامراء جعلت على رؤوس جواريها شعوراً مسدلة كالمناقيد الى اعجازهن وألبستهن انواع الثياب المصبغة ووضعت فوق الشعور التيجان وزينتهن بأنواع الحلي . وكان يد كلٍّ منهن عود للضرب عليهِ عند غنائها . وقلما استطعن الغناء بغير هذه الزينة

وكان ابو نصر الفارابي واضع القانون منفرداً بنفسهِ لا يجالس الناس ولا يجلس غالباً الاّ عند مجتمع المياه او مشتبك الرياض وهناك يؤلف كتبهُ . وكان ازهد الناس في الدنيا لا يحتفل بامر مسكن ولا مكسب وسألهُ سيف الدولة في مرتب من بيت المال فقال يكفيني اربعة دراهم . توفي بدمشق سنة ٣٣٩ هـ (٩٥٠ م)

وكان صفي الدين عبد المؤمن بن يوسف بن فاخر الموسيقي (ويقال الموسيقي) المعاصر لمولاكو ملك التتر مدمناً الخمرة لا يستطيع الابداع او الغناء بدونها

هذا ما وقفت عليهِ من اطوار الموسيقيين العربيين . اما موسيقيو الافرنج فليسوا دون هؤلاء في غرابة بدواتهم وعجيب اطوارهم واليك الآن ما عثرتُ عليهِ من عاداتهم واخلاقهم للمقابلة بين الشرق والغرب واختلاف الذوقين وتباين الخلقين

(٢) اطوار المغنين والموسيقيين عند الافرنج

كان تارتيني (Tartini) الموسيقي الايطالي (١٦٩٢ — ١٧٧٠ م) يروي عن نفسهِ ان اغنيتهُ (دقل سونتانا) التي كان يوقعها بحمها تلحّن في نومهِ فحفظها وفي يقظتهِ قيّدها ووقعها على الآلة الموسيقية فاشتهرت وذاعت

وكان موزار (Mozart) الموسيقي النمساوي (١٧٥٦ — ١٧٩١ م) قد خطب ابنة وبطلب امها (حماتهِ) كتب على نفسهِ عقداً امام محرّر المقاولات انهُ يجب ان يتزوج باحدى بناتها في اثناء ثلاث سنوات على انهُ يسوغ لها ان ترفضهُ اذا ارادت التزوج بغيرهِ . واذا لم يستطع ان يتزوجها في الاجل المعيّن لضيق ذات يدهِ او لرفضها اياهُ فيجب ان يقوم بنفقاتها اللازمة لمعيشتها كغريبة عنهُ . ويمكنها ان تقيم حيث ارادت وتعيش كيفما

شاءت مدة حياتها . وعيّن قيمة هذه النفقة في العقد المذكور ووجوب دفعها ثلاثة اقساط كل ثلاثة اشهر او كل ستة اشهر

وهيدن (Haydn (١٧٣٢ — ١٨٠٩ م) الذي كان من اكبر مصنفي الموسيقى المتأخرين واغنام بالموسيقى الآلية كان لا يستطيع كتابة سطر في الموسيقى الاّ اذا كانت غرفة التأليف مرتبة وكل شيء في محله الخاص الذي اختاره له . فاذا تشوّش اقل شيء تشوشت افكاره وانقطع عن العمل . وكان يحب النهوض باكراً لعمل لاعتقاده ان اكبر مساعد للقريحة واعظم ملهم للذهن هو سماع اغاريد الطيور عند الفجر . واغرب من ذلك انهُ كان يعتقد ان الفكر الموسيقي لا يدور في خلده الاّ اذا لبس كساءه الخاص ووضع شعره المستعار وقبّعته واتخذ طرازه وتختم بخاتم خاص في إصبعه فلذلك كان يتزين ويتبرّج ليؤلف

وكان بيتهوفن (Beethoven) الموسيقي النمساوي الشهير (١٧٧٠ — ١٨٢٧ م) اغرب من جميع الموسيقيين أطواراً وبدوات فكان يكتب اناشيده الموسيقية حيثما وجد وكيفما كانت الحالة امامهُ عندما يأكل وعندما يمشي ويتكلم مع اصدقائه وكثيراً ما كان يقف في الطرق المزدحمة ويكتب بحذقٍ بضع دقائق على غلاف رسالة وجدهُ في جيبه غير مبالٍ بفديد الناس ولا بمزاحمتهم لهُ بالمناكب . واهمُّ اناشيده الفها وهو سائر تحت المطر الغزير لانهُ كان يعتقد ان قريحتهُ تجود في الايام الماطرة فكان في اشدها يرى متجولاً في شوارع ڤينا

وكان الناس ينكرون عليه مثل هذه الاطوار ويهزأون به لاجلها وهو لا يبالي بهم لانشغاله عنهم بعمله . وكثيراً ما كان ينسلُّ من بين اصدقائه ومريديه قاطعاً حديثهُ معهم ليكتب بعض اغانيهِ تجول في خاطره ثم يعود الى اتمام الحديث وقد لا يعود . وكانت لهُ مقدرة غريبة وثبات عجيب في الايقاع على الآلات الموسيقية . وحينما تحمى اصابعهُ من الحركات الكثيرة عند الضرب كان يأخذ ابريق ماء ويمشي في الغرفة ساكباً عليها الماء ليبرد ما من يد الى يد وهو غير مكترث بالماء المنصب في الغرفة عن اصابعه . ولذلك كان مؤجروه يتضايقون من عمله هذا ويشمئزون حتى انهم يرسلون اليه اعلاماً بوجوب تركه المسكن الذي استأجره وكثيراً ما كانوا يطردونهُ فلذلك اضطرَّ ان يدفع احياناً اجرة ثلاثة مساكن في وقت واحد لانهُ اذا استأجر مسكناً لشهر فقد يحدث فيه ما يضطرهُ الى تركه بعد يوم

ومن غريب إبائه انهُ لما عقدت الدولة مؤتمر ڤينا في زمن لويس الثامن عشر اقاضوا عليه انعامهم واجازهُ الملك المذكور بالنوط النحبي فرفضهُ مستاء لانهُ اهدي قبلهُ الى روسيني

ودونيزتي (Donizetti) الموسيقي الايطالي المؤلف (١٧٩٧ — ١٨٤٨ م) كان يعتقد ان فكره لا يجود ولا تسيل قريحته الا اذا احتبس في غرفته وشرحوله اوراقه الموسيقية واقلامه وصف سلمه ثلاثة او اربعة اباريق من القهوة القوية . فكان يكتب ويشرب القهوة معاً واذا فرغت الاباريق ملأها الى ان يفرغ من الكتابة . فسبب له هذا الادمان اصفرار وجهه واسوداد شفتيه وانتهى باشتلاله العصبي وخبله العقلي وموته

وكان مايربير (Meyer Beer) الموسيقي الالماني (١٧٩٤ — ١٨٦٤ م) يستمد الهاماته الموسيقية من هزيم الرعد ووميض البرق واندفاق المطر . ولكي يحرك قريحته بهذه الفواعل الطبيعية ابتنى فوق سقف بيته مقصورة علوية اتخذ جدرانها من الزجاج . فاذا حدث النوء وهبت العواصف تحركت عواطفه واسرع اليها فتبادر الى ذهنه التصورات الموسيقية وتندفق عليه الافكار اندفاق المطر . حتى انه كان مرة يستقبل ضيوفه الذين اعدّ لهم وليمة فلما وضعت المائدة جلس معهم وما استقر به المقام حتى قصف الرعد ولمع البرق . فتركهم وصعد الى غرفته وبقي فيها الى آخر الليل

وكان روسيني (Rossini) الايطالي (١٧٩٢ — ١٨٦٨ م) يعدّ اعظم موسيقي في عصره ولكنه كان اكسل زملائه المشهورين فكان نادراً ما ينهض من فراشه قبل الظهر وكثيراً ما كان يستيقظ في ذلك الوقت ويجد النهار منطبقاً والجو مكفهراً وليس في صفاء السماء ما يصقل ذهنه فيرقد في فراشه ويشير الى خادمه ان لا يوقظه الى اليوم الثاني فينام ٢٤ ساعة أخرى . وقد كتب معظم اناشيده الموسيقية وهو في فراشه . واعتاد ان يتأهب قبل النوم لاعداد الاوراق اللازمة له والقلم واضعاً اياها في جانب سريره فلا يضطر ان يتحرك من فراشه عند نهوضه وكتابته حتى روي عنه انه بعدما كتب قسماً من احدى اناشيده للاوبرا سقطت الورقة التي كان يكتب عليها وقذفتها الريح الى آخر الغرفة فتعذر عليه من ان ينهض ويشوش فراشه المرتب ليجيء بها . فبدأ في كتابة تلك القطعة من اولها ولكنه لم يتذكر ما كتبه قبلاً . فقطعة الاوبرا المسماة «التركي في ايطاليا» توجد منها نسختان الاولى غير كاملة والثانية كاملة بهذا السبب

ووجنر (Wagner) الموسيقي الشهير (١٨١٣ — ١٨٨٣ م) القائل : ان الموسيقى لا تبلغ غايتها من الاتقان الا اذا اقترنت بالشعر . كانت اطواره غريبة . لانه كان دائماً مضطرب البال قلق الفكر لا يترك ذكر الموت حتى انه ابتنى لنفسه ضريحاً في حديقة وراء بيته وكان يذهب دائماً ليراه ويعيد على نفسه ذكر الموت الذي كان تنصب عينيه على أسافة

نسائه . واغرب من هذا انهُ كان يحمل اصدقاءهُ على تذكُّر الموت مثلهُ . واذا دعاهم الى وليمة كان يقطع احاديثهم فجأةً ويفاوضهم بشأن الخلود والقبر قائلاً « يا اصدقائي اننا اموات ولو كنا في نصف طريق الحياة . الموت نصيبنا المحتوم فيجب ان نتقبلهُ جميعنا حتى الرجل العظيم نظيري . نعم انا ايضاً يجب ان اموت . انني اودُّ من صميم الفؤاد ان أُريكم قبري اذا سمحتم لي» . ثم ينهض عن المائدة ويتتبع اصدقاءهُ الى الحديقة ليريهم ضريحهُ . وهناك كان يلقي عليهم كلمات في الخلود . ثم يعود بهم الى مائدة الطعام

ومن غريب اطوارهِ ايضاً انهُ لم يكن يستطيع ان يكتب موسيقى الاوبرا الاَّ وهو لابس كساء احمر وعمودة من نحاس على رأسهِ

والاب ليست (Liszt) الموسيقي النمساوي الشهير (١٨٠٩ — ١٨٨٦ م) كان مغروراً بنفسهِ واكثر زملائهِ استقلالاً وخيلاء . فكان لا ينشد لحناً ولا يوقعهُ الاَّ عند ما يخطر في بالهِ فاذا الحَّ الكاتب عليهِ وكانت ارادتهُ لا تطاوعهُ سبهُ وشتمهُ واطاردُ . ومما يُروى عنهُ انهُ دُعي مرة الى مأدبةٍ حافلةٍ فتناول الطعام ثم سألتهُ ربَّة البيت ان يوقع لحناً على البيانو فرفض ولما الحَّت عليهِ دنا من البيانو بتغضب ووقع لحناً قصيراً جميلاً . واسرع مهرولاً من البيت وهو يقول « هذا ثمن الطعام قد دُفع لكِ يا سيدتي» . ومن هذا القبيل ان صديقاً لهُ الحَّ عليهِ مرةً ان يوقع لحناً فلم يرق لهُ هذا الطلب فأبى ولكن المضيف لعلمهِ ان المتاجرين بصناعتهم يحتاجون الى الاطلاع في ما يُطلب منهم أَلحَّ عليهِ . فمشى الى ان دنا من البيانو ووقع لحناً عليهِ من وراء ظهرهِ فاطرب السامعين بقطعة من اناشيدهِ الشجية المحتازة . ثم نفر خارجاً من البيت وتركهم

واشار فردي الموسيقي الايطالي الشهير (١٨١٣ — ١٩٠١ م) بتوقيع الألحان للروايات التمثيلية الغنائية ولكنهُ كان يحب العزلة جدًّا ويغضب اذا حصل اقل ضوضاء في غرفتهِ . فاذا زارهُ صديق جدت قريحتهُ فانقطع عن شغلهِ حتى اذا وجد راحةً ابتدأ بغيرهِ

وكان كلوك الموسيقي لا يستطيع تأليف اناشيدهِ الاَّ بعد ان ينقل آلاتهِ الموسيقية الى الخلاء فيجلس بينها في ضوء الشمس ويكتب اغانيهِ المؤثرة ويوقعها عليها

وماسكوني الموسيقي كان يحب الالحان الايطالية والفرنسية ويكره الالحان الالمانية كرهاً شديداً حتى انهُ لا يستطيع سماعها

وساليري الموسيقي الايطالي لم يكن يؤلف انغامهُ الموسيقية الاَّ في الشوارع الكثيرة الازدحام والجهورية الاصوات

وميول الموسيقي كان يوقع الالحان الرائقة على البيانو وامامهُ جمجمة انسان يتأمل فيها فيتقن الايقاع

وموسيقي آخر كان لا يؤلف الحانهُ الاَّ وهو راكب في القطار . وآخر كان لا يكتب اناشيدهُ قبل ان يمشي امياً عديدة واضعاً في حذائهِ شظايا الزجاج المكسَّر حتى تسيل قدماهُ بالدماء فيبدع في الانشاد عيسى اسكندر المعلوف

اللبن الرائب وفوائدهُ

اللبن الرائب معروف في الشرق من عهد بعيد واستعمالهُ شائع في الهند وبلاد التتر والبلقان والاناضول والشام وبلاد العرب ومصر وغيرها من البلدان الشرقية . ولم يكن معروفاً عند الافرنج بل كان بعضهم ينكر علينا استعمالهُ الى ان قام الدكتور متشنيكوف في هذه السنوات الاخيرة وبين فائدتهُ فشاع استعمالهُ كثيراً ويستحضر منهُ الآن بعض الادوية التي تستعمل في علاج كثير من الامراض المعوية وغيرها . وقد قرأنا شيئاً في هذا الموضوع رأينا ان نلخصهُ في ما يلي عسى ان يكون بهِ بعض الفائدة

يظهر ان الجراثيم التي في الامعاء (المصارين) تختلف باختلاف عمر الانسان واكثر ما يكون ذلك في اسفل المعي الدقيق وفي المعي الغليظ فانهُ اذا تقدم الانسان في العمر زاد عدد الجراثيم في امعائهِ وكثرت انواعها التي تسبب الاختلال والعفونة في المواد البيتروجينية . ويظهر ذلك جليًّا بفحص فضلات الامعاء بالمكروسكوب بعد تلويتها . فاذا فحصنا فضلات الامعاء في الاطفال وجدنا ان اكثر الجراثيم فيها من الانواع التي تولد الحامض اللبنيك . اما الجراثيم التي في فضلات الكهول والشيوخ فاكثرها من الانواع التي تسبب عفونة في المواد البيتروجينية وكذلك الجراثيم التي ترى في المصابين بعلل معوية فانها من هذه الانواع ايضاً

وقد بحث الدكتور متشنيكوف في الشيخوخة وماهيتها فتبين لهُ ان من اسبابها التسمم الذاتي اي التسمم بالمواد العفنة التي تولدها الجراثيم المؤذية في القناة الهضمية . فاخذ يسعى للوصول الى طريقة يقاوم بها هذه الجراثيم فوجد ان الحامض اللبنيك قد يأتي بالنتيجة المطلوبة لان من خواصهِ قتل الجراثيم المؤذية او ايقاف نموها ولا يتضرر الناس من شربهِ . وقد وجد يانسوك ان الباشلوس القولوني ايضاً يوقف نمو هذه الجراثيم لانهُ يولد قليلاً من الحامض اللبنيك فلهذا الحامض اذاً فائدة في اهلاك الجراثيم المضرة التي تكثر في الامعاء لكن ادخالهُ